أبطالنا يتحدثون

٤

عاصم بن عمرو التميمي

اخو القعقاع

عبد الحميد العلوچي

دار الجاحظ للنشر

وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقية

١٩٨٠ كتاب « المورد »

أبطالنا يتحدثون

(٤)

عاصم بن عمرو التميمي

« أخو القعقاع »

عبد الحميد العلوجي

اسمي : عاصم بن عمرو التميمي ، وأنا أخو القعقاع ، وطريقه طريقي ، فمن عرفه فقد عرفني •• وحَسْبي هذا الفخر •

وأنا ، كأخي ، لا اريد أن أتحدث عن طفولتي وصباي ، ولا عن حياتي بين امي وابي •• فذاك حديث لا مكانَ له إلاّ في الهوامش والسفوح الضفاف ، وأنا أمقت هذه المواقع الرخيصة ما دمتُ ابنَ متون[1] وقِمَمٍ وأمواج •

صحبتُ الرسولَ (ص) وهذا شرف عظيم ، وقاتلت المشركين انتصاراً للاسلام •• ولكن حروب

---

(١) اصول •

الردّة التي بَلَوْتُها[2] ، مع أخي القعقاع ، في أيام الخليفة أبي بكر الصدّيق كانت مدرستي الواقعية التي أتاحت لي مجال التدريب العسكري ، وأكسبتني الجدارة والموهبة .

* * *

بعد أن صممّ أبو بكر على تحرير العراق من الاحتلال الفارسي . أصدر أوامره لخالد بن الوليد بالتحرك من اليمامة[3] ، ولعياض بن غَنْم بالتحرك من العراض[4] ، والتوجّه فوراً الى العراق : خالد من الجنوب ، وعياض نحو المصيّخ[5] على أن يلتقيا في الحيرة . وهذا يعني ان هذين القائدين

---

(٢) جرّبتها .

(٣) موضع في اواسط الجزيرة العربية ، حدوده غير معينة .

(٤) موقع قرب دومة الجندل .

(٥) مكان في محافظة الانبار غرب الرمادي .

سيضعان القوات الفارسية بين فكّي كمّاشة محكمة في الجانب الغربي من نهر الفرات .

وقد سمعتُ أن خالداً نزل في منطقة النباج[٦] بجيش قوامه ألفا مقاتل ، وأنه طالبَ الخليفة أبا بكر بتعزيزات عسكرية تمكّنه من خوض المعارك المقبلة مع الفرس المجوس . وحين أمدّه الخليفة بالقعقاع .. أصبحتُ - بهذا المَدَد - واحداً من بين ألف مقاتل تميميّ وقُضاعيّ ، وأُتيح لي أن أطيب نَفْساً بصحبة أخي القعقاع وزوجته المجاهدة هُنَيْدَة وقتاً طويلاً .

* * *

قسّم خالدٌ الجيشَ العربي ، خلال وجودنا في النباج ، الى ثلاث فِرَقٍ ، واقترح أن تسبقه

(٦) قرية في بادية البصرة ، بينها وبين اليمامة مسيرة يومين (أو عشر مراحل) .

هذه الفرق في الخروج من النباج الى الأُبُلّة[٧] (المقهورة باستبداد الحاكم الفارسي هرمز) . وقد اختارني لقيادة إحدى هذه الفرق بعد أن جعلني على الميمنة ، وأناط قيادة الفرقة الثانية بالمثنى بن حارثة الشيباني بعد أن جعله على المقدّمة ، وقيادة الفرقة الثالثة بعديّ بن حاتم الطائي بعد أن جعله على الميسرة . واشترط على كل فرقة أن تسلك نحو الهدف طريقاً غير الطريق الذي تسلكه الفرقة الاخرى ... وهكذا انطلق المثنى بفرقته قبل يومين من تحرّك خالد ، وانطلقتُ بفرقتي قبل يوم واحد من انطلاق عديّ بفرقته . وكان موعدنا جميعاً منطقة الحفير[٨] ـ وفقاً لأوامر قائدنا العام خالد ـ حيث ستكون هذه المنطقة ميداناً للمعركة الاولى .

---

(٧) ميناء على شط العرب ، كان في موقع البصرة الحالية .

(٨) موضع على حدود الصحراء ، قريب من الخليج العربي ، وهو اول منزل في البصرة لمن يريد مكة .

ويبدو أن هناك مَنْ أخبر هرمز بأننا سنعسكر بالحفير ، ولذلك قرر المثنى أن يرصد حركات هرمز أولاً بأول ، واستطاع - في نهاية الأمر - أن يعلم بأن هذا القائد المجوسي قد جمع قواته ، وسار بها الى الحفير .. حيث عبأها هناك جاعلاً (قباذ) على ميمنته ، و (انوشجان) على الميسرة .

وأخبر المثنى خالداً بهذه المناورة . وبعد التشاور أَمَرَنا خالد بالعدول عن الحفير ، والتوجّه الى كاظمة[٩] . وحين علم هرمز بهذه الاستعدادات.. استبدّ به الغضب - كما قيل لنا - وساق جيشه ، بسرعة ، الى كاظمة ، ونزلها واستحوذ على مياهها قبل أن يبلغها جيشنا .

ونزل خالد بقوّاته في مكان قفر ، عديم الماء ،

---

(٩) موضع معروف في الكويت .

وبذلك أضاف حافزاً قتالياً جديداً الى حوافزنا ، وهـو القتال مـن أجـل المـاء في هـذه الصحراء الموحشة .

* * *

أصبحنا في مواجهة جيش هرمز ، وقد رأينا جنوده يقترنون بالسلاسل تجنباً للفرار . ودارت معركة ضارية قذفت الرعب في قلوب المجوس ، وانتهت بهزيمتهم النكراء . وأسعدني الحظ برؤية خالد وهو يقتل هرمز ، وأزعجني كثيراً أن تسْفر معركة ذات السلاسل عن إفلات قباذ وأنوشجان من سيوفنا .

* * *

بعـد دراسة الموقف الجديد عَقَدَ خالـد أهمية بالغة على وجوب تدمير الحاميات الفارسية المـواجدة في منطقة شط العرب ، وأَمَرَنا بالزحف

نحو منطقة البصرة ، واستدراج القوات الفارسية المرابطة في الأُبلّة الى خوض المعركة خارجها . وتنفيذاً لهذه الخطة تظاهر خالد ، ومعه جيشنا الباسل ، بالتوجّه نحو الحيرة . وحين أقبل الليل بظلامه الحالك رَجَعَ بنا الى المكان الذي تحركنا منه ، فوجدنا جيش الفرس خارج الميناء ، فأخذناه بالسيوف والرماح ،وأجهزنا على أغلبه ، وفرّ الباقون . وقام المثنى بمطاردة فلولهم . وكان لهذا النصر أثره العميق في معنوية الجندي العربي .

* * *

انتهى زحفنا ، بعد ذلك ، في منطقة المذار[١٠] حيث وجدنا القائد الفارسي (قارن)يرابط بأربعين ألف جندي على الثنْي[١١] ، وقد جعل قباذ على

(١٠) موضع في ميسان بين واسط والبصرة ، يقع بين هور الحويزة ونهر دجلة .
(١١) نهر كان معروفاً في منطقة المذار .

ميمنته ؛ وانوشجان على ميسرته • واحتدمت بيننا وبينهم معركة قاسية أسفرت عن بطولات لامعة : فقد شاهدتُ معقل بن الأعشى يقتل قارن ، وعديّ بن حاتم يقتل قباذ • أما أنا فقد قتلتُ قائد الميسرة أنوشجان • وتمزق الأعــداء بين قتيل وغــريق ، وهربت فلولهم بالسفن •

* * *

اشتركتُ ، بعد ذلك ، في معارك عديدة تحت قيادة خالد ، فكان لي شرف الإسهام في معركــة الولجة[12] التي انتهت بهزيمة العدو ، وهروب قائدهم الأندرزغر نحو الصحراء ليموت عطشاً•• وكذلك في معركة أُلَّيْس[13] التي كلـّفت العدو

(١٢) موقع كان يحتل مكان الشطرة الحالية .
(١٣) موقع كان على صلب الفــرات الى الجنوب الشرقي من منطقــة الحيرة ، قرب الســماوة الحالية .

عدداً كبيراً من القتلى ، ومعركة امغيشيا[١٤] التي أمر خالد بهدم امغيشيا بعد هروب الجيش الفارسي منها .

واتهى بنا هذا الزحف السريع الى مشارف مدينة الحيرة ، وسمعنا ، هناك ، أن مرزبانها[١٥] قد غادرها الى جهة مجهولة في أول لقاء له معنا في منطقة الغريين[١٦] تاركاً الحيرة الى مصيرها . ولم تلبث حصون الحيرة وقصورها أن استسلمت لنا بعد مفاوضات وعمليات اقتحامية . وقد خلّدت هذا النصر بقولي :

---

(١٤) موقع بين السماوة والحيرة .

(١٥) المرزبان : الرئيس عند الفرس .

(١٦) بناءان مشهوران في الكوفة منذ عهد النعمان بن المنذر .

صَبَحْنا الحيرةَ الروحاءَ[17] خيلاً
ورَجْلاً[18] فوق أثباج[19] الركابِ
حضرنا من نواحيها قصورا
مشرّقة كأضراس الكلاب

* * *

استقر خالد في الحيرة ، واتخذها مقرّاً للقيادة ، وفيها وضع الضوابط لأدارة المناطق العراقية المحررة ، وتعزيز المسالح[20] العسكرية .. وقد أمر بنقلي قائداً لحامية كربلاء .

وأنا في كربلاء ، فوجئت يوماً بوجود خالد بيننا على رأس جيشنا ، وفهمتُ من بعض الجنود

(١٧) الواسعة .
(١٨) مشاة .
(١٩) جمع « ثبج » .. وهو ما بين الكاهل الى الظهر .
(٢٠) مواضع السلاح او نقاط المراقبة .

الزملاء أنه استخلف أخي القعقاع على الحيرة بعد أن قرر الخروج الى دومة الجندل[٢١] لأغاثة عياض بن غَنْم •

وأقام خالد في كربلاء أياماً لأستطلاع أخبار العدو ، ثم أصدر أوامره بالتوجّه نحو الأنبار على الشاطيء الشرقي للفرات • ورافقتُ هذه الحملة • وبعد قتال عنيف احتللنا الأنبار ، وقلتَ بهـــذه المناسبه :

جلبنا الخيلَ والأبلَ المهــارَى[٢٢]

الى الأعراض[٢٣] : أعراض السواد

---

(٢١) حصن يقع على خمس عشرة ليلة من المدينة المنورة وعلى عشر مراحل من الكوفة ، وهو اليوم مدينة الجوف في شمال المملكة العربية السعودية .

(٢٢) منسوبة الى مهرة بن حيدان من عرب اليمن• وكانت مشهورة بالسرعة .

(٢٣) الوديان فيها شجر وماء وقرى .

ولـم تـرَ مثلَنا كرمـاً ومجـداً
ولم ترَ مثلنا شِنْخابَ[24] هاد
شَحَنّا جانبَ المِلْطاط[25] منّا
بجمـع لا يـزول عـن البعـاد
لزمنـا جانبَ الملطـاط حتـى
رأينا الزرعَ يُقْمَعُ[26] بالحصاد
لِنَأْتي معشراً أَلِبُوا[27] علينـا
الى الأنبـار ، أنبـارَ العبـاد

وبعد هذا النصر المبين رجعتُ الى كربـلاء لمباشرة مسؤوليتي عن حاميتها .

* * *

---

(٢٤) قمة جبل .
(٢٥) الأرض الممتدة مع الفرات من ظاهر مدينة الكوفة .
(٢٦) يضرب بالمقامع ، وهي هنا : المناجل .
(٢٧) حرّضوا .

سمعتُ ، وأنا في كربلاء ، أن خالداً استخلف الزبرقان بن بدر على الأنبار ، واتجه بجيشه نحو حصن عين التمر الصحراوي الذي كان مقراً لقيادة مهران بن بهرام . وقد اتخذتُ الأُهبة للقضاء على مهران بمجرد انسحابه من عين التمر باتجاه كربلاء . وفعلاً دارت هناك معركة طاحنة بين قوات خالد والعدو المجوسي انتهت بخذلان الفرس وهروب مهران . ويبدو ان هذا القائد الخبيث عبر نهر الفرات الى جهة مجهولة .

* * *

إلتحقتُ بخالد ، مرة اخرى ، بعد فراغه من عين التمر ، وانتفعت كثيراً بتوجيهاته التي تنم عن عبقرية يعزّ نظيرها في غيره ، وتأهبنا من جديد للتحرك بعد أن اجتمع خالد برسول جاءه من عياض بن غنم يطلب العون للتغلب على المتمردين من أهل دومة الجندل .

وكانت دومة الجندل خاضعة لزعامة أُكيدر بن عبد الملك ، والجودي بن ربيعة • وقد انسحب اكيدر هاربا باتجاه عين التمر حين علم بمسيرنا الى الدومـة • وكان خالد يترصد حركاتـه ، فكلفني بمطاردتـه ، واعتراض طريقـه ، فنفـذت أمـره ، واستطعت ان اقبض على اكيدر ، وأسوقه الى خالد ذليلاً •

وبعد ذلك خرج أهل دومة الجندل وحلفاؤهم لقتالنا وقد انقسموا فريقين : فريقاً بقيادة الجودي بن ربيعة ووديعة الكلبي لقتال خالد ، وفريقاً بقيادة ابـن الحدرجان وابـن الأيهم لقتـال عياض •• والتحمنا معهم في معركـة ضاريـة استطاع خالد ، أن يأسر الجودي ، كما استطاع الأقرع بن حابس أن يأسر وديعة الكلبي • ولجأ أفراد قبيلة كلب الى الحصن منهزمين ، فدخله بعضهم حتى ضاق بهم ،

ولم يحتمل الباقين ، وأغلق الداخلون أبوابه بوجه الذين لم يسعفهم الحظ بدخوله ، فظلوا مكشوفين ينتظرون مصيرهم .. وعزمتُ على حقن دمائهم ، لأن قبيلة كلب كانت تحالف قبيلة تميم قبل الاسلام .. وهذا الحلف القديم هزّ في أعماقي حوافز الرحمة ، فخاطبت المقاتلين من بني تميم قائلاً : يا بني تميم ، هؤلاء حلفاؤكم من كلب ، فاستأسروهم ، وأجيروهم .

ففعلوا كما أوصيتهم . وكانت وصيتي سبباً في نجاة بني كلب . وقد رضي خالد بما صنعت .

* * *

أقام خالد في دومة الجندل أياماً قبل رجوعه الى الحيرة ، وكان عزمه راسخاً على تحرير المدائن .

وكانت لنا جميعاً ـ بعد دومة الجندل ـ معارك عنيفة مع الفرس .. استطعنا فيها أن نطهّر

الحُصَيْد[٢٨] والخنافس[٢٩] والمصيخ والثنى والرضاب[٣٠] من الرجس المجوسي •

وفي الرضاب ترك خالد عدداً من الوحدات المسلّحة لأسباب أمنية ، وأوصاها بالألتحاق به في الفراض[٣١] وكانت هذه المنطقة في قبضة الروم •

والتأم فعلاً شمل الجيش العربي في الفراض ، وقد حلّ شهر رمضان ، فأَمَرَنا خالد بالافطار استعداداً لمواجهة الجيش الروماني •• وقد علمنا ان الروم احتدموا غضباً على خالد لأنه اخترق إحدى مناطق نفوذهم بجرأة متناهية ، وقد دفعهم هذا الغضب الى الاستعانة بالحاميات الفارسية المتواجدة بالقرب من حدودهم •

---

(٢٨) واد يقع في طريق الكوفة ـ الشام .
(٢٩) موضع في جوار الأنبار .
(٣٠) موضع قريب من عين التمر .
(٣١) مستسقى من الأنهار يقع في الجنوب الشرقي على تخوم الشام والعراق والجزيرة .

وتقدّم هذا الحلف الهجين بقواته المشتركة نحو قطعاتنا العسكرية ، وفَصَلَ نهر الفرات بيننا وبينهم : هم في جهة الجزيرة ، وخالد في جهة صحراء السماوة • وخيّرونا بين أن يعبروا الينا أو نعبر اليهم ، ففضّل خالد عبورهم ، والتحمنا معهم في معركة ضاريةتحت شعار «ألحّوا عليهم ولاترفّهوا عنهم » •• فكان فرساننا يجمّعون الأعداء بالرماح تجميعا في مكان ضيّق ، ثم يقضونعليهم دفعة واحدة • وقد أسفرت معركة الفراض ـ خلال القتال وبعد مطاردة الفلول ـ عن آلاف القتلى بين روماني وفارسي •

وأقام خالد في منطقة الفراض ، بعد المعركة، عشرة أيام ، ثم أَمَرَنا بالعودة الى الحيرة •• وكلّفني أن أتقدم المقاتلين في هذه الرحلة ، وأناط حماية المؤخرة بالفارس شجرة بن الأعز • وأظهر خالد لنا جميعا انه سيكون في المؤخرة ، ولكنني

حدست ـ ونحن متوجهين الى الحيرة ـ انه يكتم رغبة خاصة ، وقد صحّ حدسي حين أخبرني أحد جنودنا بأن خالداً انحرف عن مؤخرة الجيش سالكاً الطريق الذي يؤدي به الى مكة .. وهذا يعني انه كان راغباً في الحج ، وانه سيؤدي هذه الفريضة ثم يعود ليلتحق بمؤخرة جيشنا قبل بلوغ الحيرة ، ودون أن يشعر به أحد ، لأن المسافة بين الفراض والحيرة طويلة جداً(٣٢) . وقد حقّق خالد ما أراد ، ووصلنا الحيرة وهو يصول ويجول بيننا .

* * *

ونحن في الحيرة وصلت أوامر الخليفة ابي بكر الى خالد بالتحرك السريع بنصف الجيش الى اليرموك تعزيزا لقوات شرحبيل وأبي عبيدة ابن الجراح ..

---

(٣٢) تبلغ هذه المسافة ٥٠٠ كيلو متر .

واستعد خالد للرحيل ، فاستخلف المثنى بن حارثة على الجبهة العراقية ، واستأثر بالصفوة من الفرسان والمقاتلين ، ووقع اختياره عليّ وعلى أخي القعقاع ، ولكن المثنى اعترض على هذه القسمة ، فأرضاه خالد بنخبة معروفة من المقاتلين كنتُ أنا وفرات بن حيان وبشير بن الخصاصية من بينهم .

ورحل خالد ، وكان أخي القعقاع وزوجته هُنَيْدَةَ ضمن جيشه .. وهذا أول فراق بيني وبينهما .

وخرج المثنى مع خالد على رأس كوكبة من فرساننا لتوديعه من الحيرة حتى آبار قراقر في الاردن .. ثم رجع إلينا ليعيد تنظيم قواته . وبعد أيام اشتبكنا مع الفرس في معركة بابل ، وأحرزنا نصراً جديداً ، وطاردنا فلولهم حتى المدائن .

وسافر المثنى الى المدينة المنورة طالباً المدد من

الخليفة أبي بكر، فوعده بذلك ، ولكن الله توفاه، وتولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب •• وكان أول اجراء قام به هو تعيين أبي عبيد الثقفي قائدا للجبهة العراقية ، وتعزيزه بالامدادات اللازمة •

وتحت قيادة أبي عبيدة هَزَمْنا الفرس هزيمة منكرة في معركة النمارق(٣٣) ، واتجهت فلولهم الهاربة نحو كسكر(٣٤) لتنضم الى القائد الفارسي (نرسي) وجيشه الذي كان يرابط في زَنْدوَرْد(٣٥) • فأمر أبو عبيد المثنى أن يقود فرسان بني شيبان ، كما أمرني بقيادة فرسان بني تميم لكي نطارد تلك الفلول في المنطقة المحصورة بين النمارق وبارق ودُرْتا ، وأوصانا بقوله : اتبعوهم حتى تدخلوهم عسكر نرسي أو تبيدوهم•

---

(٣٣) موضع قرب الكوفة بين الحيرة والقادسية.
(٣٤) منطقة واسط .
(٣٥) مدينة كانت بالقرب من واسط .

فانطلقنا في هذه المهمة ونحن نسمع منادي أبي عبيد يدعو الجيش الى الرحيل نحو كسكر .

وفي هذه المطاردة قلتُ مشيراً الى نكاية الجيش العربي بالفرس :

لَعَمْـري ومـا عَمْري عليَّ بهيّن
لقد صُبِّحَتْ بالخزي أهل النمارق
بأيـدي رجـال هاجـروا نحـو ربّهم
يجوسونهم[36] مـا بين دُرْتا وبـارق
قتلنـاهم مـا بـين مـرج مُسلّح
وبـين الهـوافي من طـريق البـوارق

وكان لي ، بعد ذلك ، شرف المساهمة في معركة السقاطية[37] التي خضناها - تحت قيادة أبي عبيد - فوق رمال محرقة ، وأنهينا بها الوجود

(٣٦) يطلبونهم بالاستقصاء .
(٣٧) موضع في جنوب كسكر .

الفارسي هناك ، وفرّ نرسي بعد قتال مرير . وبهذه المناسبة التاريخية قلت :

ضربنـا حُماة النَّرْسِيان بكَسْكَر
غـــداة لقينـــاهم ببيض بواتـــر
وفُزْنـا على الأيـام والحـرب لاقـح
بِجُرْدٍ حسـان أو بِبُرْدٍ غوابـر
وظلّت بـــلادُ النرسـيان وتمـــره
مبـاحاً لمـن بين الـديـار الأضـــافر
أبحنـــا حمى قـوم وكـان حمـــاهم
حرامـــاً على مَنْ رامـــه بالعســاكر

* * *

شاء أبو عبيد أن يبقى في السقاطية ، وكانت رغبتـه راسخة على إبـادة الفلول الهاربة أينمـــا وُجِدَتْ ؛ فكلّف المثنى بمطاردة مَنْ هرب الى

باروسما[٣٨] ، وبعث (والقاً) و (عروة بن زيد الخيل) الى الزوابي[٣٩] ، وكانت حصّتي أن اطارد المنهزمين الى نهـر جوبر[٤٠] . حُولِفْنا جميعـاً بنجاح أكيد في هذه المهام العسكرية ، واستطعتُ بدوري أن أسوق أمامي عدداً غفيراً من الأسرى ، وكان ذلك مثاراً لغبطة قائدنا أبي عبيد .

وغـادر أبـو عبيد السقاطية متوجهاً نحـو باروسما ، وفي الطريق بَلَغَهُ انضمام فلول القائد الفارسي جابان الذي خسر معركة النمارق الى جيش الجالينوس المرابط في باقسياثا[٤١] . ولذلك استقر الرأي على مصادمة الجالينوس ، وسرعان ما عاجلناه بمعركة حاسمة انتهت بفراره الى المدائن ، وتمزيق

---

(٣٨) ناحية كانت تدخل ضمن سواد بغداد .
(٣٩) إحدى نواحي بابل .
(٤٠) من فروع نهر الفرات .
(٤١) ناحية كانت ترتبط اداريا بباروسما .

قواته بين قتيل وجريح وهارب . وقد ذكرتُ ذلك بقولي :

صَبَحْنا بالبقايس[٤٢] رهط كسرى
صبوحاً[٤٣] ليس من خمر السواد[٤٤]
صبحناهم بكلّ فتى كميٍّ[٤٥]
وأجرد[٤٦] سابح من خيل عاد

وأقام أبو عبيد في احدى قرى باروسما ، وهناك اجتمع بقواته ضباطاً وجنوداً واحتفل معهم بالنصر المؤزر الذي اضاف الى الامجاد القديمة مجداً جديداً ..

* * *

(٤٢) اي : باقسياثا .
(٤٣) شرب الخمر صباحاً .
(٤٤) العراق .
(٤٥) شجاع .
(٤٦) اجرد سابح : فرس سبّاق سريع .

ارتحل ابو عبيد بقواته الى الحيرة بعد ان بلغته أنباء تؤكد استعداد الفرس لمعركة جديدة ، ثم علمنا ـ بعـد ذلك ـ ان بهمن جاذويه القائـد الفارسي قـد غـادر المدائن بجيشه متجهاً نحـــو الحيرة .. فأصدر أبو عبيد أوامره بالخروج من الحيرة والتحرك نحو بابل . وانتهى بنا المطاف الى أن نجعل نهر الفرات بيننا وبين الفرس . وهناك دارت معركة الجسر التي أسفرت عن مصرع قائدنا البطل أبي عبيد . وعندئذ تولى المثنى بن حارثـة زمـام المبادرة ، وأمر أخاه مسعوداً بالمحافظة على الجسر ، والحيلولة بينه وبين الفرس تحقيقاً لعملية الانسحاب . وقـد تعاونت مـع مذعور بن عـدي والكلج الضبي وعروة بن زيد الخيل وسليط بن قيس على حماية الانسحاب وخلال هذه العمليـــة البطولية أُصيب المثنى والكلج بجروح خطيرة ، وجُرِحْتُ أنـا ايضاً ، ولكن ذلك لـم يمنعنا من

تحقيق عملية الانسحاب بنجاح . وشاء المثنى ، بعد ذلك ، أن تقيم مؤقتاً في المروحة[٤٧] .

وجاءت عيون المثنى بخبر مفـاده ان جابان ومردانشاه الفارسيين خرجا في عددمن فرسانهم نحو أُلَّيْس . وبمجرد سـماع المثنى لهـــذا الخبر استخلفني على الجيش ، وخرج في تجريدة من الخيل قاصداً أُلّـيس ، وفي منطقة النخيلة اصطدم بهم ، وحملهم أسرى الى معسكرنا ، ثم أمرنا بالرحيل الى أُلّـيس .

* * *

شاء المثنى أن تنتشر قواتنا على مساحة كبيرة تستغرق مابين خفّـان[٤٨] ومرج السباخ[٤٩] . وكنا

---

(٤٧) كانت المروحــة في موضــع برج بابل على الجانب الغربي من الفرات .

(٤٨) موضع يتجـاوز القادســية قليلا وهو الى الكوفة اقرب .

(٤٩) موضع بين القادسية وخفان .

في هـذه المنطقة ننتظر الامـدادات العسكرية من الخليفة عمر • وما هي إلاّ أيام حتى أخذت القبائل العربية تتوافد الينا من المدينة المنورة بصحبـة نسـائهم وأطفالهم ومواشيهم ، وقـد استقبلهم جنودنا في خفّان •• وأصدر المثنى أوامره بالتحرك الى البُوَيْب(٥٠) •

وكان المثنى يعلم ـ وهو بمرج السباخ ـ ان رستم وفيرزان اتفقا على تجهيز جيش من الفرسان بقيادة مهران بن باذان ، وان هذا الجيش خرج من المدائن متجهاً الى الحيرة •

واستقام لنا ـ ونحن في البويب ـ ثمانيـة آلاف مقاتل ،كلهم صائمون ، فقد أدركنا شـهر رمضان ونحن على اهبة الاستعداد لمعركة البويب • وأفطرنا ، بأمـر المثنى ، تعزيزاً للقدرة القتاليـة •

(٥٠) نهر في منطقة الكوفة يستمد مياهه مـن الفرات .

ودارت المعركة بضراوة بعد أن صممنا على أن تكون معركة البويب أبلغ انتقام لشهداء معركة الجسر •
ونقلنا بشائر النصر الى المدينة المنورة •

* * *

ذات صباح ، اتفقت مع عصمة بن عبدالله وجرير البجلي على مفاتحة المثنى بالأغارة على ساباط [٥١] ، وقلنا له : ان الله عزّ وجلّ قد سلّم وكفى ، ووجّه لنا ما رأيت ، وليس دون القوم شيء ، فتأذن لنا في الإقدام •

فوافق ، وأذِنَ لنا ، ونفّذنا غارة ناجحة على ساباط واقتحمنا حصنها ، وأخضعنا ما فيه من الفرس ، وعُدْنا بغنائم الى المثنى •

وعزم المثنى ، بعد معركة البويب ، على إنهاك

(٥١) موقع خارج المدائن ، وقريب منها .

الحاميــات الفارسية بغــارات تسلبها القــدرة على الاحتشاد في جيش واحد . وفعلاً نفّذ ما عـزم عليه ، وأسهمتُ معه ، وتحت قيــادته ، في جميع الغارات التي صفعت الفرس بأوجع الضربات على امتداد الشواطيء الشرقية من الفرات ، وعبر دجلة صعوداً ونزولاً من المذار الى تكريت ، وحتى أعماق المناطق الشرقية من العراق .

* * *

خــلال وجود المثنى في شراف(٥٢) انهــارت صحته ، ونحن متأهبون لاستقبال القائد الجديد سعد بن ابي وقاص . ومات المقاتل الشجاع قبــل أن نفرح بلقائه المرتقب مع سعد . وخسرنا بوفاته بطلاً يعزّ نظيره بين الابطال ، وقــائداً لامعــاً لا حدودَ لعبقريته .

(٥٢) ماء بنجد على ثمانية اميال من الاحســاء .

وفي شراف عيّن سعد امراء الاجناد ، وأمّرَ على الرايات رجالاً من أهل السابقة ، ثم عبأ جيشه، فجعل على المقدمة زهرة بن عبدالله (وأناب عنه خالد بن عرفطة) وعلى الميمنة عبدالله بن المعتم ، وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط ، وجعلني على المؤخرة ، وأناط أعمال الدوريات بسواد بن مالك التميمي ، وجعل سلمان بن ربيعة الباهلي على الخيّالة ، وحمّال بن مالك على المشاة ، وعبدالله بن ذي السهمين على الشؤون الادارية .

وأمر سعد بإنزال نساء المقاتلين في منطقة العُذَيْب[٥٣] وكلّف غالب بن عبدالله الليثي برعايتهن وحمايتهن . ثم ارتحل بجيشه حتى نزل القادسية ، واتخذ من حصنها المعروف (قُدَيْس)

---

(٥٣) واد لبني تميم بينه وبين القادسية حائطان متصلان بينهما نخل .

مقراً لقيادته . وها نحن الآن جميعاً رهن إشارة القائد .

* * *

وذات يوم ، طلب سعد مواجهتي في حصن قديس ، وهناك كلّفني بقيادة سَرِيّة[٥٤] للقيام بغارة تموينية ، وكان من بين أفراد هذه السريّة مقاتلون شجعان ، مثل : نذير بن عمرو ، والوليد بن عبد شمس ، وسرّني أن أقوم بهذه الغارة ، ورأيتُ من الصواب أن أُساير نهر الفرات الى جنوبه ، وجعلتُ ميسان[٥٥] هدفي المباشر ، وهناك أخذت افتش عن الغنم والبقر في الزرائب الفارسية ولكنني لم أجد شيئاً ، ويبدو ان الفلاحين أخفوها

---

(٥٤) جماعة مختارة من الجيش يتراوح عددها بين (٥) و (٤٠٠) مقاتل .
(٥٥) منطقة العمارة بين البصرة وواسط .

بين الشجيرات الكثيفة ومجتمع القصب ، وسألت أحد الرعاة عنها ، فأنكر وجودها . وشاء حسن الحظ أن يخور[٥٦] ثور في الزرع ، فاقتربنا من مكانه ، فوجدنا كثرة من الثيران .. وحمدنا الله، وسقناها أمامنا الى معسكر سعد . وأطلقنا على هذا اليوم اسم (يوم الأباقر) .

* * *

أقام سعد بالقادسية متطلعاً الى أن يوجّه الفرس اليه قواتهم ، ولكنهم لم يفعلوا ، فبعث عيونه الى أماكن شتى لمعرفة ما عسى أن يقوم به الفرس ، وعادوا يؤكدون بأن يزدجرد ملك الفرس قد كلف رستم بقيادة الجيش الفارسي في معركته الجديدة ضد العرب .

وفي هذه الأثناء حمل البريد الى سعد كتاباً

---

(٥٦) يصيح .

من الخليفة عمر يأمره بأن يبعث الى يزدجرد وفدا من المقاتلين المعروفين بالأصل والحَسَب ، ووقـار المظهر ، والرأي الصائب .. يدعونه الى الاسلام أو اداء الجزية .

وتنفيذاً لهذا الأمر اختار سعد : النعمان بن مقرّن ، وبُسْر بن ابي رُهم ، وحَمَلة بن جوّية، وحنظلة بن الربيع ، وفرات بن حيان ، وسهيل بن عديّ . والمغيرة بن زرارة لشهرتهم بالأصل والحسب والرأي الصائب .. واختارني ضمن عطارد بن حاجب ، والاشعث بن قيس ، والحارث بن حسان ، وعمرو بن معدي كرب ، والمغيرة بن شعبة ، والمعنّى بن حارثة الشيباني لشهرتنا بالمظهر المهيب وجودة الرأي .

ويبدو ان هذا الاختيار جاء متفقاً مع قاعدة الشخص المناسب للمهمة المناسبة ، فنحن الأربعة عشر مقاتلاً كنا نتمتع بكفاءة جيدة، ومزايا شخصية

ومن هنا جدارتنا بالايفاد ، وجدارة النعمان بن مقرّن برئاسة الوفد .

* * *

خرجنا من القادسية على الخيل ، وفي الطريق مررنا بمعسكر رستم في ساباط وتجاوزناه ، وعبرنا دجلة ، وبلغنا اسبانير[٥٧] ، وانتهينا الى باب ايوان يزدجرد ، ولبثنا واقفين بجانب خيولنا غير المسرّجة . واستأذنا بالدخول . ولما دخلنا أَمَرَنا يزدجرد بالجلوس ، وكان سيء الأدب ، وقد بلغ من غروره انه كان يعرض أُبّهته علينا لنتصاغر أمامه ، وأمام وزرائه وحاشيته ، ولكنه كان واهماً، لأن أي واحد منا كان يعدل بكبريائه ألف فارسي.

وبدأ يزدجرد محاورته معنا بأشياء تافهة تتعلق بملابسنا وأحذيتنا وسياطنا ، وسأل النعمان

(٥٧) البلاط الملكي الفارسي في المدائن .

عن السبب الذي دعانا للمجيء اليه ، فكان جواب النعمان عامرا بالايمان والعقيدة والشجاعة ، وقد خيّره فيه بين الاسلام أو الجزية أو الحرب . وتكلم بعده المغيرة بن زرارة بما يشبه مضمون كلام النعمان ، وقال : اختر إن شئت الجزية عن يد وانت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجي نفسك ..

وعند ذاك استشاط يزدجرد غضباً ، وصاح فينا : لا شيء لكم عندي . ثم التفت الى بطانته(٥٨) وقال : ائتوني بِوقْر(٥٩) من تراب . فأتوا به . فقال : احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن . والتفت الينا قائلاً : ارجعوا الى صاحبكم فاعلموه انني مرسل اليكم رستم حتى يدفنكم في خندق القادسية !!..

---

(٥٨) البطانة : الأصحاب المقربون .
(٥٩) الوقر : الحمل الثقيل .

اخبروني مَنْ هـو أشـرفكم ؟ . فسكت أعضاء الوفد تواضعاً ، وتبرعتُ بحمل التراب ، لأنني كنت أصغرهم سناً ، وصحتُ أنا أشرفهم .. أنـا سيّد هؤلاء ، وسأحمل التراب . فالتفت يزدجرد اليهم سائلاً : آكذلك هو ؟ . قالوا : نعم ! .

وخرجنا من الايوان، وأنا أحمل وقر التراب.. حتى انتهيت الى فرسي ، فحملته عليها ، ثم اسرعنا في العودة ، وسبقتُ أعضاء الوفد الى باب قُدَيْس ، وصرخت قائلاً : بشّروا الأمير بالظفر .. ظفرنا إن شاء الله .

وحملت التراب الى سعد ، وحكيت له ما جرى لنـا مع يزدجرد ، فقال ابشروا ، فقـد أعطانا الله أقاليد(٦٠) ملكه .

وقـد قيل لي بعدئذ أن بعض الفرس نقلوا

---

(٦٠) جمع اقليد وهو المفتاح .

قصتي مع يزدجرد الى قائدهم رستم مؤكدين له حماقتي حين تبرعت بنقل التراب .. ولكنه أدرك مغزى ذلك فقال لهم : انه ليس بأحمق ، وليس هو أشرفهم ، وانما أراد أن يفتدي قومه بنفسه .. لقد ذهب بمفاتيح أرضنا !!

وقيل لي أيضاً ان رستم حاول أن يستردّ مني التراب ، ولكنه لم يدركني .

* * *

قبل التأهب لخوض معاركنا القادمة مع الفرس اجتمع سعد بقائد الطلائع سواد بن مالك التميمي ، والمقاتل حميضة بن النعمان البارقي ، وتباحث معهما في امكانية الاغارة على النهرين[٦١]، فأبديا استعدادهما ، وتأهبا لأنجاز هذه المهمة . وقبل أن ينطلقا على رأس مائة مقاتل لكل منهما ..

---

(٦١) منطقة قريبة من الكوفة .

نهاهما عن التوغل والابتعاد كثيراً عن المعسكر العربي •

وعلم رستم بهذه الأغارة ، فأرسل اليهم جماعة كبيرة من فرسانه • وحين بلغ سعداً أن سواداً وحميضة قد أوغلا وابتعدا ، دعاني ودعا معي جابر بن ابي سبرة الأسدي ، وكلّفنا باستقصاء آثار سواد وحميضة ، وأناط بي ـ في حالة اندلاع معركة مع أعدائنا ـ قيادة جماعتي • فنفذنا أمره ، وسلكنا الطريق الذي سلكه سواد وفرسانه • وبعد مسيرة ناشطة وجدناهم في منطقة تقع بين النهرين واستينيا[٦٢] وقد أحاطت بهم خيل رستم لتستعيد منهم المواشي التي غنموها من الاقطاعيين الفرس ورأيت حميضة عن بُعْدٍ وحين رآنا انحرف عن طريقنا ، فأدركناه ، وبعد أن

(٦٢) قرية من قرى الكوفة ، وقد ورد اسمها محرفاً عند المؤرخين بصورة « اسطيميا » .

عرفنا قال : لقد ظننتكم من فرسان الفرس ولذلك انحرفت عن طريقكم .

وسألته عما حل بالمقاتل سواد بن مالك ، فقال : انني خيّرته ، حين أحاط بنا فرسان رستم ، إمّا أن يشاغلهم بالقتال لأفلت منهم بالغنائم ، واما أن أُشاغلهم أنا ليفلت هو . ففضّل مشاغلتهم ، وهو الان يخوض معهم معركة حامية .

ولم أكد أسمع من حميضة هذا الخبر حتى توجهت بفرساني لأغاثة زميلنا سواد .. وخلال المصادمة فرّ الاعداء وعدنا جميعا بالغنائم الى سعد ، فهنأنا بالنصر والسلامة .

* * *

أنا الآن ، مع ثلاثة وثلاثين ألفاً من المقاتلين العرب ، متأهب ـ تحت قيادة سعد ـ لخوض معركة أرماث (وهي اليوم الأول من أيام القادسية)

ضدّ مائة وعشرين ألف مقاتل من الفرس وثلاثين فيلاً تحت قيادة رستم . وقد انتظم جيشنا في تعبئته ، فكان زهرة بن عبدالله على المقدّمة ، وكنت أنا على الفرسان بين ميمنة عبدالله بن المعتم وميسرة شرحبيل بن السمط ، ونادى منادي سعد في مقاتلينا الأشاوس : ألا ان الحسد لا يحلّ إلاّ على الجهاد في أمر الله ، فتحاسدوا على الجهاد .

ورجع أمير كل جند الى موقفه من أصحابه ليخطب فيهم ويثير حماستهم .. ويشرّفني انني خاطبت الفرسان بقولي : إنّ هذه بلاد قـد أحلّ الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين مـا لا ينـالون منكم ، وأنتم الأعلون والله معكم إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن فلكم ما يملكون .. الله .. الله .. اذكروا الأيام ومـا منحكم الله فيهـا .. أَو لا ترون ان الارض

وراءكم بسابس قفار[٦٣] ليس فيها خَمَرٌ[٦٤] ولا وَزَرٌ[٦٥] يُعْقَلُ اليه[٦٦] ولا يُمْتَنَعُ به[٦٧] ؟ .. اجعلوا الآخرة همّكم .

وخلال هذا التأهب جاءني من يخبرني بأن القائد سعداً يريد مقابلتي ، فذهبت فوراً الى حصن قديس . وهناك وجدت القائد مجتمعاً بنخبة رائعة من الخطباء والشعراء والذين تنتهي اليهم آراء الناس والمشهورين بالنجدة وذوي الفضل من سائر المقاتلين . وقد أوصانا بقوله : انطلقوا فقوموا في الناس بما يحقّ عليكم ، ويحقّ عليهم عند مواطن البأس ، فأنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم

(٦٣) ارض خالية لا انيس فيها ولا ماء ولا كلأ .
(٦٤) غطاء .
(٦٥) ملجأ .
(٦٦) يلاذ به .
(٦٧) يحتمى به .

ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس ، فذكّروهم وحرّضوهم على القتال .

فخرجنا من عنده ، وألتحقنا بصفوفنا ، وأخذ كل واحد منا يقول ما يختلج في صدره .. رفعاً للمعنويات ، وتحريضاً على القتال . وأنا بدوري خاطبت جميع الفرسان قائلاً : يا معاشر العرب ، انكم أعيان العرب ، وقد صمدتم(٦٨) الأعيان من العجم . وانما تخاطرون(٦٩) بالجنة ، ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيْناً(٧٠) على العرب غداً .

وأدّينا صلاة الظهر ، وبعد أن كبّر سعد

---

(٦٨) قصدتم .
(٦٩) تراهنون .
(٧٠) عيباً وقبحاً .

التكبيرة الاولى شددنا أعنتنا لنكون على أهبة الاستعداد ، وكبّر الثانية فتهيأنا للقتال ، وعندما كبّر الثالثة برز أهل النجدة من الفرسان فخاضوا المعركة ، وخرجتُ أمام مواقع بني تميم ، وأنا أقول :

قد علمتْ بيضاء صفراء اللبَبْ[71]
مثل اللُجَيْن[72] إذ تغشّاه الذهب
اني امرؤ لا مَنْ يعينه السبب[73]
مثلي على مثلك يغريه العتب

وطاردتُ أحد المجوس ، فهرب مني .. ولكني تبعته حتى اقتحمت صفوف الفرس ، فاصطدمت بأحد فرسانهم يقود بغلاً مثقلاً

---

(٧١) يقصد فرسه . واللبب موضع القلادة من الصدر .
(٧٢) الفضة .
(٧٣) الحيلة .

بالأحمال .. وسرعان ما تخلّى عن البغل محتمياً بأصحابه ، فأخذت البغل الى صفوفنا ، وكشفت عن الغنيمة ، فاذا هي كمية وافرة من الأخبصة(٧٤) والعسل المعقود .. وعندئذ وضعتها بين يدي قائدنا سعد ، ورجعت الى مكاني بين الصفوف . وما هي الا هنيهة حتى عاد الينا بالغنيمة أحد رجال سعد، وهو يقول : ان الأمير قد أعاد اليكم ما غنمتم فكلوه .

والى هذه المأدبة دعوتُ عدداً من فرساننا ، وكانت لنا أهنأ غداء .

* * *

نشطت أفيال المجوس في يوم أرماث على طول خط القتال ، فحملتْ يميناً ويساراً على خيولنا ، وهذه كانت تحيد عن طريقها وتخاف منها . وجاءني

(٧٤) حلوى تعمل من التمر والسمن .

رسول من سعد يقول لي : يا معشر بني تميم ، ألستم أصحاب الأبل والخيل •• أما عندكم لهذه الأفيال حيلة ؟ • فقلت له : نعم ، والله عندنا لها حيلة •

ناديتُ قومي ، واخترت منهم أفضل الرماة وأمهر المقاتلين وأخفّهم حركة ، ووضعت لهم خطة تقوم على أساس مشاغلة الراكبين في الصناديق الخشبية فوق الأفيال ، ثم مهاجمة الأفيال في غفلة منهم ، وأمرت بقطع الأحزمة التي تربط الصناديق بظهور الأفيال • فأمطر رماتنا مَنْ كان في هذه الصناديق بوابل من السهام ، والتحمنا معهم في معركة تراشقٍ أتاحت الفرصة لمقاتلينا أن يبلغوا مواقعهم خلف كل فيل ، فأخذوا بأذنابها وأربطة صناديقها فقطعوها •• وارتفع عواء الافيال ، وكلما سقط صندوق بمن فيه من الفرس هجموا عليهم

فقتلوهم ، وهكذا أصبحتُ في نظر سعد حامي المقاتلين القادر على ردّ عادية[٧٥] المجوس في اية لحظة .

• وفي يوم أرماث قلت :

حمينا يوم أرماث حمانا

وبعض القوم أولى بالجِمال

* * *

وفي صباح اليوم الثاني من أيام معركة القادسية ، وهو يوم أغواث ، حملنا شهداءنا وجرحانا من ميدان القتال . وكان بعض نساء المقاتلين يحفرن القبور ويدفن الشهداء ، وبعضهن يقمن بتمريض الجرحى .

وسمعنا ، قبل اليوم ، ان الخليفة عمر ـ

---

(٧٥) العادية : الظلم والشر .

بعد تحرير دمشق ـ كتب الى القائد أبي عبيـدة يأمره بتوجيه الجيش العراقي الذي كان مع خالد الى العراق للمشاركة في معركة القادسية • ففرحت بهذا الخبر ، لانه سيوفّر لي فرحة اللقاء بأخـي القعقاع وزوجته هنيـدة •

وفعلا ، حلّ القعقاع بيننا بصحبة ألف فارس وبدأ بالقتال صباحاً بعنف وشدة ، وجعل مشـاة الفرس هدفـاً لسيوف فرسانـه • وحين لاح لنـا حيّانا بأجمل تحية وبشّرنا بالمدد ، ولم أملك الا ان أعانقـه بشوق •

* * *

حانت لي فرصـة للتحدث مـع القعقـاع ، وحكيت له الدور الذي لعبته الأفيال يوم أرماث، وكيف خافت منها خيولنا • فسَكَتَ ، ثم اقترح

ابتكاراً يدل على عبقريتــه ، وطلب منــي تنفيــذه بمساعدة أبناء العم من بني تميم • وقد حققنا مـا أراده عندما استؤنف القتال: فقد أمر أن يُحْـمَلَ عشرة من الرجالْ على ابلٍ مبرقعة بالاقمشة الملونة، وأن تحيــط بهم خيولنــا للحماية • فهزتني هــذه الحيلة ، وأمرت الفرسان بالهجوم بين الصفــين ، فكانوا يتشبهون بالافيــال ، وتم لهم أن يفعــلوا بالفرس في هذا اليوم كما فعلوا بنا يوم أرمـاث عندما استخدموا الافيال •

وفي هذه المعركة أخذت الابل تزرع الرعب في خيول الفرس ، فولت منها فرارا • وبذلك حقق العرب نصرهم المؤزر •



ونحن في صميم المعركـة قدم من المدينـة

المنورة رسول للخليفة عمر يحمل أربعة سيوف ، ويقود أربع أفراس • وقد طلب الرسول من القائد سعد أن يوزع هذه الهدايا تكريما لمن أظهر بطولة متناهية في معاركنا ضد الفرس ، فاختارني سعد مع ثلاثة آخرين ، هم : حمال بن مالك ، والربيل بن عمرو ، وطليحة بن خويلد •• ومنحنا السيوف• واختار أخي القعقاع ومعه نعيم وعتاب اليربوعيان وعمرو بن شبيب ، ومنحهم الافراس • وقد خلد الربيل بن عمرو تكريمنا بالسيوف •• بقوله :

لقد علم الاقوام أنا أحقهم
اذا حصلوا بالمرهفات البواتر
وما فتئت خيلي عشية أرمثوا
يذودون رَهْوا[٧٦] عن جموع العشائر

---

(٧٦) على مهل •

لَدُنْ[77] غُدْوَةً[78] حتى أتى الليل دونهم
وقد أفلحت اخرى الليالي الغوابر

* * *

نحن الآن في يوم عماس ، وهو اليوم الثالث من أيام معركة القادسية . وفي الصباح جمعنا شهداءنا وجرحانا المصابين في يوم أغواث ، وحملناهم جميعا خلف صفوفنا .. وهناك سمعت القائد سعد يقول : أنتم أحرار في غسل الشهداء أو دفنهم بدمائهم .

وأقبل رجال حاجب بن زيد الانصاري ليحملوا الشهداء والجرحى على الابل الى العذيب . وفي هذه المنطقة دفن شهداؤنا بمعونة النساء والصبيان . أما قتلى الفرس ، فقد ظلوا في الصحراء

(٧٧) بمعنى : لدى .
(٧٨) الغدوة من بعد الفجر الى طلوع الشمس .

بلا دفن . ويبدو أن القيادة الفارسية تفضل أن يكون الامر كذلك ، وقد أدهشني هذا التصرف في باديء الامر .. ولكن أحد الاسرى أفادنا بأن الطقوس المجوسية تحرم دفن الموتى ، وتترك جثثهم للحيوانات المفترسة والطيور الكواسر .

* * *

استمر أخي القعقاع في هذا اليوم التاريخي ، وخلال الليلة السابقة على تطبيق قاعدة الايهام بالمدد لتقوية الروح المعنوية في أعماق المقاتلين العرب ، فأخذ من جديد يسرّب فرسانه سرّاً الى المكان الذي فارقهم فيه بالامس ، وهو يقول لهم : اذا طلعت لكم الشمس فاقبلوا مائة مائة .. كلما توارت مجموعة عن الانظار فلتتبعها مجموعة اخرى بحيث لا يشعر بكم أحد من المقاتلين .

وفي وقت مبكر ، قبل طلوع الشمس ، وقف

القعقاع متطلعا نحو الطريق ليدخل في روع المقاتلين أنه يتوقع امدادات جديدة • ولما بزغت الشمس ظهرت طلائع الفرسان من بعيد ، فكبر القعقاع وكبرنا معه ، وتباشرنا بوصول المدد • وأدركت ، على الاثر ، عمق الفائدة المتوخاة من الايهام بالمدد ، وأبحت لنفسي أن أصنع بفرساني صنيع القعقاع بفرسانه ، فأمرتهم بالتوجه الى منطقة خفان ، والتحرك من هناك وفق مجاميع منتظمة نحو معسكرنا في القادسية ، فجاءوا على هذه الشاكلة ، وبِقَدْرِ ما انتعش مقاتلونا بهذا المدد الجديد••جزَعَ الفرسُ ، وطارصوابهم ، وتبددت معنوياتهم •

* * *

استعمل رستم في يوم عماس عددا من الافيال ضد كتائب فرساننا ، فأخذت تفرق شمل الخيل ،

وتبعث فيها الذعر .. كما حدث تماما في يــوم أرماث . ولمــا أدرك سعد خطورة الافيال قرر ان يشلّ نشاطها ، وتداول مع الخبراء في كيفية تعطيلها، وأجمع الرأي على قطع خراطيمها بالسيوف ، وفقء عيونهــا بالرماح .

وأرسل سعد في طلبي وطلب أخي القعقاع ، وأمرنا ان نفتك بالفيل الابيض الذي يقود ويسيطر على عدد كبير من الافيال ، كما أمر حمّال بن مالك والربيل بن عمرو بالقضاء على الفيل الاجرب الذي يتحكم بعدد آخر من الافيال . فتأهبت أنا وأخي القعقاع لمقاتلة الفيل الابيض ، وحمل كل منا رمحا صلبا متينا ، وجابهناه على فرسين ، تدعمنــا قوة من المشاة . أمرت هذه القــوة بمضــايقة الفيــل والاحاطة بــه من كل جانب ليحيروه ، وكذلك فعل حمال والربيل . وظهرت على الفيل الابيض بوادر العدوان ، وأخــذ يتلفت يمنــة ويسرة استعدادا

للمشاكسة . ولما وجدته متشاغلا بجنودنا الذين أحاطوا به من كل جانب ، هجمت عليه ومعي أخي القعقاع ، فغرزنا رمحينا في عينيه .. ومن الالم أخذ ينخر ، ثم نفض رأسه ، وطرح سائسه الفارسي أرضا ، وأدلى خرطومه ، وهنا عاجله القعقاع بالسيف فقطعه .. وعندئذ وقع على جنبه ، فقتلنا من كان على ظهره في الصندوق الخشبي .

وقضى حمال والربيل على الفيل الاجرب ، وقتلا من كان على ظهره أيضا . ولما رأى الفرس ما صنعنا بالابيض والاجرب .. فروا بأفيالهم هاربين لا يلوون على شيء .

* * *

نحن الآن في ليلة الهرير ، وكانت هذه الليلة مفعمة بأصوات خرساء .. دون كلام واضح . وما يزال جيشنا على تعبئته السابقة منتظما في

صفوف ثلاثة : الرماة والفرسان والمشاة من حملة الرماح والسيوف .

وخرجت ، ومعي مسعود بن مالك وقيس بن هبيرة وابن ذي البردين .. نطلب القتال ، وندعو الى المبـــارزة .

ويبدو ان رستم قد أدرك حقيقة المستوى القتالي لفرساننا ، وتفوقه على المستوى الفارسي ، ولذلك قرر أن تكون معركته في هذه الليلة زحفا .. بدلا من الكرّ والفرّ ، وظهر ذلك واضحا حين طلبنا المبارزة ولم يخرج الينا منهم أحد .

وظل مقاتلونا وقوفا ينتظرون تكبيرة سعد الثالثة .. ولكنه لم يكبّر ، واستمر التراشق بالسهام بين الفريقين ، وفقد أخي القعقاع قدرته على الصبر ، فزحف بفرسانه نحو الاعداء ، وانضممت اليه ، واقتدى بي المقاتلون من بني أسد . وأمر سعد بالهجوم العام ، فزحف رؤساء القبائل ولحقوا

بنا ، وخالطوا الفرس . وقد حدث ذلك بعد صلاة العشاء ، فاستقبلنا الليل ، واستمرت المعركة حتى الصباح ، واحتدم القتال بصمت ، فلا كلام لنا الا الهرير . وانقطعت أخبارنا عن سعد ، ثم أطلقنا اليه البشرى بالنصر .

* * *

بزغت الشمس ، وحلّ صباح القادسية الخالدة لتكون اليوم الرابع من أيام الملحمة الرهيبة التي ذاق الفرس مرارتها ، وفقدوا فيها امبراطوريتهم .

إنهارَ جيش الفرس في هذا اليوم الأغر ، وقُتِلَ رستم بسيف المقاتل العربي هلال بن علّفة التيمي .. ولم يبق أمامنا سوى شراذم فضّلت الثبات في المعركة على الفرار منها ، فقتلنا مَنْ ثبت ، وهرب مَنْ جزع ، وكان من بين الهاربين: زاذ بن بُهَيْش ، وقد هرب مني بالذات ، والهرمزان

(هرب أمام عطارد بن حاجب) وقارن (هرب أمـام القعقاع) •

وبهذه الخاتمة زال تماما ما كان لدى الفرس من معنوية ، وركبهم الذلّ والهوان •

وانتهت المعركة بعد الظهر وقبل حلول العصر، وهذه النهاية لم تمنع القـائد سعدا من مطـاردة الفلول الهاربة • فقد أمر أخي القعقاع وشرحبيل بن السمط بانجازها ، وكان لي شرف الخـروج مع القعقاع في هذه المطاردة ، فاقتفينـا آثارهم ، وقتلنا في المنطقة الواقعة بين الخـرّارة والنجف عددا كبيرا منهم •

* * *

كنا نعلم جيدا أن فلول الاعداء بعد معركة القادسية فرّ بعضها الى أطلال بابل ، وتفرق الآخرون

في أنحاء فارس • وظل المقاتلون العرب في القادسية شهرين ينتظرون أوامر جديدة من الخليفة عمر • ·

وكتب عمر الى سعد يأمره بالتقـدم نحـو المدائن ، وها نحن اليوم على أتم الاستعدادللمعركة القادمة • وقبل أن نأخذ طريقنا الى هـذا المعقـل الفارسي شاء قائدنا سعد أن أتولى قيادة كتيبـة الاهوال ، وأن يتولى أخي القعقـاع قيادة الكتيبة الخرساء ، وكانت كل كتيبـة تتألف من ستمائـة فارس •

* * *

وأخيرا أمَرَ سعد" زهرةَ بن عبدالله بالتحرك على مقدمة جيشنا الى الكوفة ، والبقاء هناك حتى تلتحـق به قوات عبـد الله بن المعتم وشرحبيل بن السمط لكي تتوجه جميعاً نحو المدائن •

وحالما تحرك جيشنا من الكوفة .. تحرك سعد بقواته من القادسية ، وكلٌ يقصد المدائن . وخلال تقدمنا التقينا بجموع فارسية في برس[٧٩]، فقاتلناها وهزمناها . وكتب زهرة رسالة الى سعد ـ وهو في الطريق الى المدائن ـ يخبره فيها بهذا النصر ، وقد علمنا ـ فيما بعد ـ ان القائد سعدا إلتقى بالقادة الثلاث : الفيرزان والهرمزان ومهران، وقاتلهم وهزمهم .. وفرّ الثلاثة الى جهات مجهولة، ولكن القيادة العامة استطاعت بوساطة مخبريها أن تعلم بأن الفيرزان هرب الى نهاوند ، بينما هرب الهرمزان الى الأحواز ، ومهران الى المدائن .

* * *

التقى الجيشان : جيش سعد ، وجيش زهرة في بابل ، وشاء سعد أن تنضمّ اليه كتيبة الاهوال

---

(٧٩) هي بورسيبا قرب الحلة .

والكتيبة الخرساء ، ثم أمر زهرة بالتقدم الى ساباط •

وبقيتُ بصحبة القعقاع مع سعد في بابل ، وجاء الى سعد مَنْ يخبره بأن زهرة قد تغلب على الفرس في ساباط ، وصالح أهلها على جزية ، وانه واصل تقدمه الى المدائن ، واصطدم في طريقه بكتيبة فارسية ، واضطرها على الهزيمة الى بهرسير(٨٠) ، وهناك حاصرها بقواته . وظل ينتظر وصول سعد •

وتحركت قوات سعد ، واجتزنا معه بابل ، وعمّت بين مقاتلينا فرحة اللقاء بأخوانهم من قوات زهرة ، وضربنا الحصار على بهرسير لمدة تسعة شهور ، وأمر سعد أصحاب المنجنيق بقذفها دون

---

(٨٠) ضاحية للمدائن على ضفة دجلة اليمنى ، وكانت في مواجهة المدائن ، تعصمها اسوار وابراج ، ويربطها بالمدائن جسر .

هوادة ، وفي هذه الاثنـاء بعث يزدجرد رسـولا الى سعد يطلب الصلح ، ويعرض عليه أن يكـون نهر دجلة حدّا فاصلا بيننا وبينه ، ولكن سعدا رفض هذا العرض ، وأمر بتشديد الحصـار على بهرسير ، ومواصلة ضربها بالمنجنيقات •

ولم يَطُلِ الحصار بعد ذلك ، اذ استطاع بعض الفدائيين من مقاتلينا أن يتسلقوا أسـوار المدينــة ، ويفتحــوا أبوابهــا لقطعاتنــا • وقـد ظهـر لنـا جليّـا بعـد اقتحامهـا ان الفرس أحرقـوا الجسر الذي يربطهـا بالمـدائن ، وركبوا السفن والزوارق ولاذوا بالفرار الى المدائن الشرقية •• ليكون نهر دجلة خط دفاعهـم ضـد هجومنـا الغالب •

وغمرتني البهجة حين رأيت مقاتلينـا داخل بهرسير وهم يتدافعون الى شواطيء دجلة ليشهدوا المدائن الشامخة على الجانب الآخر بقصرها الابيض ،

في حين كان قائدنا سعد يصغي لمن أخبره بأن يزدجرد قد فرّ بأهله وأمواله وحاشيته الى مدينة حلوان[٨١] بعد أن أدرك أنه مغلوب على أمره •

* * *

نحن الآن متأهبون لعبور دجلة ، وكان سعد يرقب الموقف قبل أن يأمر جيشنا بالعبور ، وكان معجبا بالبسالة التي أبدتها كتيبة الاهوال ، وهي تقاتل الفرس على مشارع[٨٢] النهر • وقد أخبرني بعضهم بأنه قال: والله •• لو كانت الكتيبة الخرساء بجنب كتيبة الاهوال لأَغْنَتْ وعَجّلَتْ بالعبور •

وبعد مناوشات متلاحقة انضمت كتيبتي الى

(٨١) مدينة تقع بعد قصر شيرين •
(٨٢) جمع مشرعة ، وهي مورد الشرب من النهر.

كتيبة أخي القعقاع ، وانتظم الفرسان والمشاة في وحدات وفق تقسيم دقيق •

وكان منطلق العبور من قرية الصيّادين ، وقد جرى بصمت عند الفجر • وقضت الاوامر أن تعبر أولا كتيبة الاهوال خوضا وسباحة لاعداد منطقة آمنة لمقاتلينا ، ثم تليهـا الكتيبة الخرساء لتقـوم بتأسيـس رأس جسر ، ولتضمن الحماية اللازمـة للعبور ، ثم تقوم الكتيبتان بالاستيلاء على زوارق الفـرس • وارسالهـا الى الضـفة الاخرى لنقـل الجيـش •

وتقدمت بكتيبتي ، باعتبارها فرقة الصاعقة المعروفة بالنجدة والنخوة ، نحو شاطيء دجـلة ، وهناك قلت لفرساني: مَنْ منكم يسرع بالتطوّع لنحرز الاسبقية في اقتحام هذا النهر ، ولنحمـي المشارع من الجانب الاخر ؟ فتطوع ستون فارسا ، واقترحت عليهم أن يمتطوا خيلا ذكورا وأناثا ••

لان هذه الألـْفة بين الذكور والاناث تضمن سباحة الخيل بهدوء وسلاسة .

وهـكذا اقتحمنا النهر - رغم فيضانه وَزَبَدِهِ -(٨٣) وخرجنا الى الجانب الآخر زُمَراً، وكانت أول زمرة تسعة فرسان ، كنت أنا في مقدمتهم ، وكانت الزمرة الثانية ثلاثة وثلاثين ، والزمرة الثالثة ثمانية عشر .

وغاب عني أن أذكر بأن الفرس حين رأونا نقتحم دجلة ، أخذتهم الدهشة ، وسمعت بعضهم يقول لبعض : والله .. ما تقولون إلاّ جِنّاً .

ولكننا ، على أية حال ، اقتحمنا على خيولنا مياه النهر ، ودارت بيننا وبينهم أول معركة نهرية ، وقد أوصيت فرساني باستعمال الرماح

---

(٨٣) الزبد : اوساخ ونفايات مستطيلة رخوة بيضية الشكل تطفو على وجه الماء .

وتسديد ضرباتها نحو عيون الاعداء ، فأنجزوا هذه الوصية بنجاح ، وتمزّق الفرس المهاجمون بين قتيل غريق وبين هارب أعور. وبهذا النصر مَهَّدْتُ لبقية فرسان كتيبتي طريق العبور بسهولة ، ثم تبعتنا الكتيبة الخرساء بقيادة القعقاع ، ونجحنا جميعا في تأسيس رأس جسر صالح للعبور الشامل. وبهذه المناسبة قلت :

شهدنا بعون الله أفضلَ مشهد
بأكرم من يقوى على كل موكب
ركبنا على الجُرْد الجياد سوابحا
بكل قناة بل بكل مقضّب
وكنا بعون الله لا نرعوي اذا
تبادر طعن كالخمام المشطب
وكان جهاد قد ملكنا بأمره
من الملك مستعلى البناء المذهب

ترانـا وانّـا في الحـروب أسودها

لنـا العـزم لا يخفى بكل مجـرب

نجـول ونحمـي والرمـاح شوارع

ونطعن يـوم الحـرب كل مجنـب

قدمنـا على كسرى بشـدة حربنـا

وما حربنـا في النـائبات بمختـبي

ومما لا أريد أن أنساه هو أنني لم أَرَ في حياتي أعجب من عبور دجلة ، وقد أطلقنا على يوم العبـور اسم (يوم الجراثيم) .. اذ لم يبق أحـد من فرساننا ـ وقد بلغت المياه حزام فرسه ـ الا وقد ظهرت له خلال المخاضة جرثومة[٨٤] في قـاع النهر ليستريح عليها .

* * *

(٨٤) الجرثومة مرتفع ترابي متماسك يسـتطاع الوقوف عليه .

بعد ذلك ، أمر سعد قواته بالعبور وهو يطلب منهم الاستعانة بالله والتوكل عليه ، وكان لهذا العبور مشهد رائع في هذا اليوم ، فقد امتلأ النهر بالخيل والمقاتلين ، وأصبح من العسير أن يشاهد المرء شاطئا أو مياها ، فليس في دجلة أو على شاطئيه سوى موجات بشرية متلاحقة ، بحيث كان المقاتلون يتبادلون الاحاديث وهم في غمرة المياه خلال عملية العبور وكأنهم يتبادلونها على الارض وبكل بساطة •

وبعد الهيمنة على الشاطيء الاخر الذي يؤدي الى المدائن •• أمرت أصحاب الزوارق والسفن من الفرس بدفع زوارقهم وسفنهم الى جانب بهرسير لنقل قطعاتنا الاخرى من المشاة ، وتجهيزاتنا العسكرية الى حيث كنا في الجانب الآخر • وقد تمّت هذه العملية دونما صعوبة •

* * *

بعد نجاح عملية العبور .. تهيأنا للزحف على المدائن ، وكانت كتيبتي أول كتيبة دخلت هذه المدينة ، وعلى أثرها دخلت الكتيبة الخرساء ، فأخذت ، ومعي القعقاع ، تتجول في طرقها ودروبها، ولم نصطدم بأية مقاومة . وقد علمنا بأن الفرس احتموا بالقصر الابيض ، فحاصرناهم ، ودعوناهم الى الاستسلام ، فاستجابوا على اداء الجزية والذمة .

وَفُتِحَتْ أبواب القصر الابيض ، وأقام سعد فيه ، وجعل ايوانه مصلّى ينادى فيه بأسم الله ، وتقام فيه الصلاة . وغنم الجيش غنائم عظيمة ، وزّعها سعد على المقاتلين ، وبعث بخمسها الى الخليفة عمر .

* * *

بعد معركة المدائن لم يأذن الخليفة عمر

لقائدنا سعد بتعقب الفلـول الفارسية الهاربـة ، وبقينا في المدائن ننتظر وصول تعليمات جديدة من القيادة العليا في المدينة المنورة •

وكان الفرس قد فرّوا حتى جلولاء ، وجاءت الاخبار الى سعد بأن يزدجرد قد أخذ يجمع الناس في حلوان ويرسلهم الى جلولاء ، وانه قد ولّـى مهران قيادتهـم ، وان مهران والذين معه قامـوا بحفر خندق عظيم حول جلولاء وأحاطوه بحسك الحديد(٨٥) وتعاهدوا على ابادة جيشنا •

وقد جمع سعد كل هذه المعلومات ، وبعث بها الى الخليفة عمر • ومضت على ذلك مدة طويلة، وأخيرا أصدر عمر أوامره الى سعد بتوجيـه اثنى عشر ألف مقاتل بقيادة هاشم بن عتبة الى جلولاء ، واناطة مقدمة هذا الجيش بأخي القعقاع •

---

(٨٥) الأسلاك الشائكة .

وتأهبت هذه الحملة الجـديدة للرحيـل ، واجتمعت طويلا بالقعقاع وزوجته هنيدة، وعانقته، وتمنيت لهما السلامة والنصر وسعادة اليوم والغد، وقد بالغت في التعبير عن عواطفي في موقف الوداع، لان قلبي كان يحـدثني بأنهمـا سيغيبان عني الى الابد ، ولن أراهما بعد اليوم ٠

* * *

وبعـد رحيل هاشم بن عتبـة بجيشـه الى جلولاء ، جاءت أوامر جديدة من الخليفة عمر الى سعد تطلب منه أن يبعث عتبة بن غزوان المازني على رأس حملة عسكرية الى منطقة البصرة ٠ وتنفيذا لهذه الاوامر غادر عتبة مدينة الكوفة في ثمانمائـة مقاتل كنت أنا من بينهم ٠

وفي منطقة البصرة أقمنـا شهرا ، وفوجئنـا

هناك بتمرد الفرس في الأُبُلّة ، فقاتلناهم وهزمناهم ودخلنا الابلة محررين .

ولم نهدأ بعد ذلك ، فقد علم عتبة بتجمع الفرس في دست ميسان(٨٦) لقتالنا ، فعبرنا النهر ، وبادرنا الى مصادمتهم ، وتشتيت شملهم ، وأسفرت المعركة عن اقتناص قائدهم أسيرا .

* * *

كنّا ، ونحن في منطقة البصرة ، نعلم جيدا بأن العلاء بن الحضرمي دعا جيشه الى اقتحام بلاد فارس ، فأجابوه الى ذلك .. وعندئذ أمرهم بالتحرك من البحرين وعبور الخليج العربي . وبعد أن أنجزوا عملية العبور قصدوا مدينة اصطخر ، وهناك دار بينهم وبين الفرس قتال عنيف .. ولكن

(٨٦) مدينة بالقرب من الأحواز .

تفوّق الفرس في العَدَدِ والسلاح لم يحقق النصر الذي كان أمنية العلاء ، وانسحب الجيش العربي يريد البصرة غير انه لم يجد اليها سبيلا .. لاستيلاء الفرس على السفن العربية .

ولما بلغ الخليفة عمر ما صنع العلاء أمر عتبة بأرسال جيش كثيف ، والقيام بعمل سريع لانقاذ قوات العلاء ، وفكّ الحصار عنهم ، فأمتثل عتبة ، وبعث اثني عشر ألف مقاتل بقيادة أبي سبرة بن أبي رُهم ، وكنت أنا وعرفجة بن هرثمة والاحنف بن قيس من فرسان هذا المدد الضخم .

وخرجنا على البغال نقطع المسافات بمحاذاة الساحل .. حتى لاحت لنا قواتنا المحاصَرَة ، واحتدم القتال بيننا وبين الفرس الذين كان يقودهم شَهْرَك ، وانكشفت المعركة عن انتصارنا وهزيمة الفرس . والجدير بالذكر ان المقاتلين الشباب من

أهل البصرة سجلوا في هذه المعركة ألمع البطولات. وبعد تحقيق هذا النصر رجعت قواتنا الى البصرة وبقينا فيها ننتظر وقائع الغد .

* * *

دعاني عتبة ذات يوم الى اجتماع في مقرّ قيادته بحضور نخبة من فرساننا المقاتلين ، ودرس معنا امكانية تحرير منطقة الاحواز من ربقة الاحتلال الفارسي ، فأجمعت الآراء على ضرورة هذا التحرير .

وفي اليوم التالي تحركت فئة قوية من كتائب قواتنا متوجهة الى الاحواز . وفي الوقت نفسه طلب عتبة من القائد سعد امداده بقوات اضافية ، فأرسل اليه النّعيمَيْنِ : نعيم بن مقرّن ونعيم بن مسعود بصحبة عدد كبير من الفرسان . وسرعان

ما التحق هذا المدد بقاطع الاحواز ، وبعد قتال ضار .. تمّ تحرير القاطع كله .

* * *

اقترب موسم الحج ، وعزم عتبة على اداء الفريضة ، فغادرنا الى مكة بعد ان استخلف علينا المغيرة بن شعبة . وكنا ـ بعد نهاية هذا الموسم المبارك ـ ننتظر عودة عتبة .. ولكن احدى القوافل اخبرتنا بوفاته وهو في طريقه الينا ، فغلبنا الحزن ، وأعلنّا الحداد ، وكانت خسارتنا بفقدانه جسيمة.

وظل المغيرة مسؤولا عن امارته في البصرة حتى عزله الخليفة عمر ، وعين مكانه أبا موسى الاشعري .. وفي عهد هذا الامير الجديد أعلن الفرس في الاحواز ثورة لئيمة ، انقضوا عهدهم ، وامتنعوا عن دفع الجزية .. وقد علم أبو موسى بأن يزدجرد كان يدعو جميع الفرس الى التعاون

مع الفرس الطارئين على الاحــواز ضد الحــكم العــــربي ..

وقد كتب أبو موسى تقريرا شاملا عن هذا الموقف وارسله الى القائد العام سعد . وسـعد بدوره أخبر الخليفة عمر بمـا يجري في الاحواز ، وعلى الاثر أرسل الخليفة كتابين ، أحدهما الى سعد يأمره فيه أن يُجهّز جيشا من أهل الكوفة بقيادة النعمان بن مقرن ، ويوجهه الى قاطع الاحــواز ، وثانيهما الى أبي موسى الاشعري يأمره فيه بتجهيز جيش آخر من أهل البصرة بقيادة سهيل بن عدي ، وتوجيهه الى القـاطع المذكور على أن أكون أنـا والبراء بن مالك وعرفجة بن هرثمة من بين فرسانه. وأكّد الخليفة في كتابيه أن يكون أبو سبرة أميرا على الجيشـين .

وقد سبقنا جيش النعمان الى المعركة .. حين

التقى بالهرمزان في أربك[٨٧] ، واشتد القتال بينهما ، واضطر الهرمزان بفعل الضربات العربية الموجعة أن يتراجع الى رامهرمز ، ومنها الى مدينة تستر • ويبدو ان النعمان طارد فلول ذلك القائد المغلوب ، واستولى في طريقه على رامهرمز ، لأنّ سهيل بن عدي قائد جيشنا حين أمرنا بالنزول في سوق الاحواز بعض الوقت تمهيدا لاستئناف مسيرتنا الى رامهرمز علم بصورة قاطعة بأن الهرمزان هرب من هذه المدينة واعتصم بتستر ، ولذلك أصدر أمرا بالرحيل فورا الى تستر •

وفي مشارف هذه المدينة ألتقينا بقوات النعمان القادمة من رامهرمز ، وحملنا جميعا حملة رجل واحد على الجيش الفارسي الكثيف •• ولكننا لم نبلغ أهدافنا منه ، وتشاور سهيل والنعمان مع أبي سبرة تقديرا للموقف ، واتفقوا على مفاتحة

---

(٨٧) موضع معروف في ناحية رامهرمز .

الخليفة عمر حول وجوب تعزيزهم بالامدادات اللازمة ، فكتب أبو سبرة الى الخليفة يصف مناعة تستر ويرجو المدد ، فأمدّه بآبي موسى الاشعري وجنده . وقد اقتضى هذا الوضع الجديد تعديلا في توزيع المسؤوليات ، فاحتفظ النعمان بقيادة آهل الكوفة ، وحلّ أبو موسى محل سهيل في قيادة أهل البصرة ، وكلا القائدين يخضعان لقيادة أبي سبرة . وهكذا أصبح في مقدورنا أن نحاصر الفرس في تستر عدة شهور ، وان نكثر فيهم القتل .. ورغم ذلك صمدت المدينة أمام ضرباتنا ، وعندئذ كتب أبو سبرة الى الخليفة عمر يصف له ما نلقاه خلال الحصار ، فأصدر الخليفة أمرا الى الصحابي عمار بن ياسر ـ وكان في الكوفة ـ بالمسير بقطعاته مددا الى أبي سبرة .

وبعد التحاق عمار بنا استطعنا أن نحمل

الفرس على التراجع نحو خنادقهم ، ولم نعطهم أية فرصـة لاستعادة رشدهم ، بل اقتحمنـا عليهـم الخنادق ، وسيطرنا على تستر من جميع جوانبها ، وتسرب عدد من الفدائيين العرب الى داخل المدينة، ففتحوا أبوابها لجميع المقاتلين • وفي هذه اللحظات اضطربت أحوال الفرس ، فتمزقوا بين قتيل وأسير وفلول هاربة • وكان الهرمزان بين الاسرى •

* * *

خرجنا مع أبي سبرة في أثر الفلول الهاربة من تستر قاصدين مدينة السوس ، وقد اصطحبنـا معنـا الهرمزان مغلولا ، وكنا نعرف مسـبقا ان سكان السوس من الفرس كانوا يناوشوننا خلال حصارنا الذي ضربناه على تسـتر ، ولذلك فرضنا عليهم الحصار •• ولكنهم فضّلوا العافية ، ولجأوا الى طلب الصلح ، فصالحناهم •

ومن السوس أمرت القيادة العربية أنس بن مالك والاحنف بن قيس بالسفر الى المدينة المنورة واقتياد الهرمزان الاسير الى الخليفة عمر . ثم زحفت قواتنا ، بعد ذلك ، الى مدينة جنديسابور ، وحاصرناها حصارا محكما . وفجأة فتحت أبوابها ودبت الحركة في أسواقها ، وانتشر سكانها في الأزقة والشوارع وكأن لم تكن بيننا وبينهم حرب ، فتعجبنا من هذا التصرف ، وسألناهم عن الاسباب التي حملتهم على الاطمئنان الينا ، فأدعوا اننا رمينا اليهم بالامان فقبلوه وأقروا حمايتنا عليهم مقابل الجزية . ولما أنكرنا عليهم ذلك أصروا على دعواهم وتبرأوا من الكذب .

وازاء هذه الحادثة كلفت قيادتنا بعض المقاتلين باكتشاف الحقيقة ، وبعد ملاحقة دقيقة لهذا السر ، ظهر ان شخصا من أهل جنديسابور

يدعى (مكنف) ـ وكان مولى ملحقا بقواتنا ـ هو الذي رمى اليهم بالامان لينقذهم من المصير الذي ينتظرهم . فقلنا لهم : انما هو مولى . فأجابونا : اننا لا نعرف الحر من المولى ، وقد جاء أمان ، فنحن عليه قد قبلناه .

ولم تملك القيادة ازاء هذا الاصرار على جنوحهم للجزية والذمة الا أن تحيط الخليفة عمر بذلك ، فكان جواب عمر أن يذكّرنا بأن الله عَظّمَ الوفاء ، ويأمرنا أن نوفي لهم ، فقلت بهذه المناسبة :

لَعَمْري لقدكانت قرابةُ مُكْنِفٍ
قرابةَ صدقٍ ليس فيها تقاطعُ
أجارهم من بعد ذلّ وقلّة
وخوف شديد والبلاد بلاقع

فجاز جوار العبد بعد اختلافنا
ورَدَّ أمورا كان فيها تنازع
الى الركن والوالي المصيب حكومة
فقال بحقّ ليس فيه تقاطع

* * *

بعد هذه الانتصارات أذن الخليفة عمر للجيوش العربية في اجتياح بلاد فارس ، وانتهى في ذلك الى رأي الاحنف بن قيس ، فأمر أبا موسى الاشعري أن يسير من البصرة الى المناطق المحررة التي تجاورها ، ويقيم هناك بانتظار الاوامر الجديدة ، ثم عين القادة الذين سينجزون الفتوحات القادمة ، وبعث بألوية هؤلاء القادة مع سهيل بن عدي .. فدفع لي سهيل لواء سجستان، كما دفع لواء خراسان الى الاحنف بن قيس ، ولواء

اردشير خرّة وسابور الى مجاشع بن مسعود ، ولواء اصطخر الى عثمان بن أبي العاص ، ولواء درابجرد الى سارية بن زنيم ، ولواء مكران الى الحكم بن عمير ، واحتفظ سهيل لنفسه بلواء كرمان .

وأمدّنا الخليفة عمر جميعا بتعزيزات عسكرية من الكوفة ، فأمدني بعبدالله بن عمير الاشجعي ، كما أمد سهيلا بعبدالله بن عتبان ، وأمدّ الاحنف بعلقمة بن النضر وعبدالله بن أبي عقيل وربعي بن عامر .. وأخيرا أمد الحكم بن عمرو بشهاب بن المخارق .

* * *

توجهت بقواتي ـ تنفيذا لامر الخليفة ـ الى منطقة سجستان ، والتحق بي هناك عبدالله بن

عمير ، ودارت بيننا وبين الفرس ـ على مشـارف المدينة ـ معركة دامية أسفرت عن هزيمة الفرس ، وتراجعهم الى مدينـة زَرَنْج ، وكانت عاصمـة سجستان ، وضربت حولها حصارا محكما انتهى ، خلال أيام قلائل ، بطلب أهلها الصلح ، فصالحتهم على الجـزية •

* * *

وأنا في سجستان تناهت اليّ الاخبار بمقتل الخليفة عمر بن الخطاب ، فحزنت أعمق الحزن•• ولكنها ارادة الله سبحانه وتعالى ، ونحن أعجـز من أن نملك لها دفعا • وسمعت أيضا بأن الخليفة الجديد عثمان بن عفان قد عزل أبا موسى الاشعري عن البصرة واستعمل بدله عبدالله بن عامر ـ أحد المقاتلين الشباب وكان في الخامسة والعشرين من

العمـر ـ وشاء الخليفـة أيضا أن يسـتعمل على سجستان عبدالله بن عمير ، وقد بلغت الهمّة بهذا المقاتل الباسل أن يتوغل في منطقة خراسان بحيث بلغ مدينة فرغانة ، وأن يزرع اصلاحاته في جميع المناطق التي حررها •

ولم يلبث عثمان حتى عزل عبدالله بن عمير عن سجستان مستعملا بدله عبدالله بن عامر •

* * *

أقمتُ في سجستان عاما كاملا وأنا أنعـم برعاية عبدالله بن عامر ، وانتظر البريد والقوافل للوقوف على أنباء انتصارات جيوشنا العربية في المقاطعات الفارسية البعيـدة • وقد فوجئت ذات يوم بأمر جديد من الخليفة عثمان يقضي بعـزل عبدالله بن عامر واستعمالي بدلا عنه في سجستان،

فقمت بأدارة هذه المقاطعة بحكمة وكياسة كنت فيهما موضع الاعجاب والتقدير •

* * *

وقع لي ، وأنا في سجستان ، ما لم يكن في حسباني ، فقد أمر الخليفة عثمان بنقلي واليا على منطقة كرمان • ولذلك تأهبت لمباشرة وظيفتي الجديدة ، فودّعت أصدقائي ورفاقي المقاتلين فرسانا ومشاة ، وأخذت سبيلي الى كرمان •

وهناك منحت الشؤون الادارية والعسكرية ما منحتها من الكفاءة والفطنة يوم كنت في سجستان •

ومضت الايام على وتيرة واحدة ، وأمضّني الشوق الى رؤية أخي القعقاع والتمتع ببشاشة

الحـديث مع زوجته المجاهدة هنيـدة •• وقد سمعت انهما موجودان في الكوفـة حيث أنـاط الخليفة بأخي ادارة الشؤون العسكرية فيها •

وكان عزائي الوحيـد ، في هذا الاغتراب ، هو كثرة النخيل في كرمان ، وتلك نعمة أحمـد الله عليها ، لان النخلة كانت تذكرني بكل قريـة عراقية • بل كانت تزيح عن قلبي وطأة الحنين الى أيامي في العراق الحبيب •

ومع الايام تدهـورت صحتي ، ووجدتني ـ ذات يوم ـ عاجزا عن الحركة ، فآمنت بقضاء الله سبحانه وتعالى ، فقد شاء أن أموت ـ بعـد جهـاد متواصل ـ غريبـا ، بعيـدا عن الاهـل والعشـيرة •

وكانت امنيتي أن أدفن تحت أفياء نخلة من نخيـل كرمان •• فعسى أن يكون دفـين كرمان أنيس نخلتـه المأمولـة •

